

أداء التكليف من دُسن الولاية



الشيخ علي أبو ريبًا

عَنْ عَيْدِ اللّٰهِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَيْدِ اللّٰهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاللّٰهُ لَوْ فَلَاقَتْ رُمَّانَةٌ بِنَضِصَيْنِ، فَقُلْتُ هَذَا حَرَامٌ وَهَذَا حَلَالٌ، لَشَهِدْتُ أَنَّ السَّذِي قُلْتُ حَلَالٌ حَلَالٌ وَأَنَّ السَّذِي قُلْتُ حَرَامٌ حَرَامٌ، فَقَالَ: "رَحِمَكَ اللّٰهُ رَحِمَكَ اللّٰهُ" (1). وَعَنْ زُرِّيَادِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَيْدِ اللّٰهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "مَا أَحَدٌ أَدَّى إِلَيْنَا مَا افْتَرَضَ اللّٰهُ عَلَيْنَا إِلَّا عَيْدُ اللّٰهِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبٍ" (2).

تقدّم هاتان الروایتان نموذجاً فريداً لمن أدرك كُذبه الولاية، وأذعن في أداء التكليف دون تردد. من هنا، إن مسألة أداء التكليف وارتباطه بحسن الولاية تحتاج إلى قراءة عميقة في سيرة أولئك

الأصحاب، الذين أعطوا نموذجاً عقائدياً رائعاً في التزامهم بالتكليف، الذي ينمُّ عن حُسْنِ الولاية للإمام المعصوم عليه السلام.

* ما هو التكليف؟

هو الأوامر والنواهي الإلهية التي كلفنا الله تعالى بها. والالتزام بالتكليف هو التزام بما يأمر الله تعالى به والانتهاز عما نهى عنه. وهو أعمُّ من مسائل الشريعة (الحلال والحرام)؛ إذ قد تستجدُّ مسألة في الحرب مثلاً، كتكليف الرماة في معركة أُحد بعدم مبارحة أماكنهم مهما كانت نتائج الحرب.

والتكليف قد يتبلَّغ من المعصوم عليه السلام، وقد يشخِّصه نائب المعصوم أيضاً، كالتكليف الذي يصدر عن الوليِّ الفقيه مثلاً. لذلك، فإنَّ الالتزام به يمثِّل حُسْنَ الولاية لمصدر التكليف.

* ما المقصود بحُسْنِ الولاية؟

هو أن يُحسن المكلَّف الطاعة والتسليم لمن أمر الله تعالى بطاعتهم، وذلك على أكمل وجه في الظروف كلاًها، وفي السراء والضراء.

* ابن أبي يعفور الموالي المطيع

إنَّ رواية ابن أبي يعفور تُظهر مدى حُسْنِ الولاية للقائد الذي يمثِّل الالتزام بتكاليفه التزاماً بالأمر الإلهيِّ، وهذه النقطة هي المحور الأساسيُّ في فهمنا للولاية. لذلك، عندما يأتي الأمر من الوليِّ، فإنَّ الالتزام بالتكليف إنَّما هو التزام بالأمر الإلهيِّ وطاعة الله تعالى، فليس ثمَّة عَرَضِيَّة بين

الطاعة للوليّ وبين طاعة الله تعالى، وإنّما هي طوليّة في طاعة الله تعالى، أي أنّ ولاية الوليّ مستمدّة من ولاية الله تعالى فقط، والمكلّف عندما يلتزم بطاعة الولي؛ إنّما يلتزم بطاعة الله سبحانه في الواقع. فضلاً عن ذلك، ثمّة تلازمٌ بين أداء التكليف وحُسن الولاية، فمن أحسن الولاية للوليّ، أدّى التكليف حتّى ولو كان شاقّاً مُكلِّفاً على المستوى الشخصي، فلا يتدرّع ولا يتهرّب من أدائه، بل يعدّ ذلك جهاداً في سبيل الله وامتثالاً لأمره تبارك وتعالى، وهو يعلم علم اليقين أنّ ما يُكلّف به فيه المصلحة للإسلام والمسلمين، وفيه مصلحته في الدنيا والآخرة، وقبل كلّ شيء فيه رضى الله تعالى.

من هنا، فإنّ الطاعة والتسليم ركنان أساسيان في فهم الولاية وأداء التكليف، وعبد الله بن أبي يعفور، الذي هو من أصحاب وحواريّ الإمام الصادق عليه السلام، يؤكّد من خلال قوله هذا للإمام عليه السلام أنّّه مطيع ومسلّم دون حرج في ارتباطه مع إمام زمانه المفترض الطاعة.

* خصوصيّة الموالى المطيع

لماذا أحسن ابن أبي يعفور الولاية بأداء التكليف على أكمل وجه؟ يُبيّن الإمام الصادق عليه السلام بعض الخصوصيّات التي تميّز بها ابن أبي يعفور، وتشمل كلّ موالٍ مطيع، ينتظر تشريفه بتكليف إلهي، فيسرع لأدائه طاعةً وتمثلاً للوليّ، حيث كتّبه أبو عبد الله عليه السلام إلّى المفضّل بن عمّار الجعفيّ حين ماضى عبده اللّه بن أبي يعفور: "بأ مفضّل عهديّك إلّىّ كأنّك عهديّ كان إلّىّ عبده اللّه بن أبي يعفور صلّوات اللّه عليّه، فمضى صلّوات اللّه عليّه مؤفياً للّه عزّ وجلّ ولرسوله ولإمامه بالعهود المعهود للّه، وقبض صلّوات اللّه [اللّه] على روحه مَحْمُودَ الأثرِ مشكور السّعيّ مغفوراً له مرّوماً برضى اللّه ورسوله وإمامه عنده... ما كان في عصرنا أجدّ أطوع للّه ولرسوله وإمامه منهُ، فما زال كذلك حتّى قبضه اللّه إلّيه برحمتيه وصيّرهُ إلّى جنّته، مُساكناً فيها مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وأُمير المؤمنين عليه السلام، أنزله اللّه بيّن المَسْكَنَيْنِ مَسْكَنٍ مُحمّدٍ وأُمير المؤمنين (صلّوات اللّه عليهما) وإنّ كانتا

الْمَسَاكِينُ وَاحِدَةً وَالذَّرَجَاتُ وَاِحِدَةً! فَزَادَهُ اللّٰهُ رِضًى مِنْ عِنْدِهِ
وَمَغْفِرَةً مِنْ فَضْلِهِ بِرِضَايَ عِنْدَهُ" (3).

* التكاليف المرتبطة بحسن الولاية

عندما نتحدث عن أداء التكليف الذي يرتبط بحسن الولاية، لا نقصد بذلك التكاليف الشرعية المرتبطة بالعبادات كالصلاة والصوم والحج وغيرها؛ لأنّ إلزامها مفروغٌ منه، وليس مورد امتحان، وإنّما نقصد التكاليف التي ترتبط بالأمور الاجتماعيّة والسياسيّة، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، والمواجهة والصراع في الساحات ضدّ أئمّة الكفر وخطّتهم ومشاريعهم.

لذلك، إنّ الامتحان الحقيقيّ في الالتزام بالتكليف الذي ينمّ عن حُسن الولاية لأهل الولاية، إنّما هو في مثل هذه الأمور والقرارات، التي تجعل المكلف بين أمرين: إمّا الطاعة والتسليم، وإمّا التعذّر والهروب. وما حصل مع الإمام الحسن عليه السلام خير مثال على ذلك. فعندما التزم الإمام عليه السلام بالصلح مع معاوية، ظهرت في الأتباع طائفتان: طائفة أحسنت الولاية بالتزامها بما أمر به الإمام عليه السلام، وأخرى انحرفت وردّت على الإمام عليه السلام بمواقف تثير الدهشة.

في المقابل، نجد أنّ الأوصياء الذين تميّزوا في ولائهم للنبيّ ولأهل البيت عليهم السلام كانت ميزتهم الواضحة، والتي أكّدها عليها أئمّتنا عليهم السلام، هي حُسن الولاية، قولاً وفعلاً. أمّا الذين سقطوا في عاقبتهم، فهم أولئك الذين لم يحسنوا الولاية فعلاً وعملاً، فكانت بالنسبة إليهم مجرد ارتباط سطحيّ بعيداً عن الإذعان للتكليف، فتذرّوا -لعدم امتثالهم للتكليف الإلهيّ الذي أُمرؤا به من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام بحجج واهية.

* حُسْنُ الْوَلَايَةِ: أَدَاءُ حَقِّ الْوَلِيِّ

إنَّ المِثَالَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي يَعْفُورٍ يُؤَكِّدُ مَدَى اسْتِعْدَادِهِ بِاللِّتِمَامِ بِالتَّكْلِيفِ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ مِثْلَ الرَّمَّانَةِ، الَّتِي يُفْتَرَضُ بِدَاهَةِ أَنْ يَكُونَ حَكْمَهَا وَاحِدًا مِنْ جِهَةِ الْحَلَايَةِ وَالْحَرَمَةِ، فَهُوَ يَصْرِّحُ لِلْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدَى إِيمَانِهِ وَاعْتِقَادِهِ بِمَا يَقُولُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الرِّوَايَةَ الثَّانِيَةَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدَّرَ لِبْنِ أَبِي يَعْفُورٍ هَذَا الْوَلَاءَ، وَمِيَّزَهُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، مَشِيرًا إِلَىٰ أَنَّْهُ يَرِيدُ مِثْلَ هَذِهِ النَّمَاذِجِ مِنَ الْمَوَالِيَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الْمَفْتَرَضِ الطَّاعَةَ، وَذَلِكَ يَقُولُهُ: "مَا أَحَدٌ أَدَّىٰ إِلَيْنَا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَيُنَا إِلَيْنَا مَا افْتَرَضَ عَلَيْنَا"؛ فَالسَّرُّ فِي حُسْنِ الْوَلَايَةِ وَأَدَاءِ التَّكْلِيفِ، وَهَذَا مَا يَلْزِمُ أَنْ نَعْمَلَ لَهُ فِي وَاقِعِنَا الْحَاضِرِ، فَإِذَا طُبِّقَتْ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ فِي وِلَايَتِنَا لِلْوَلِيِّ الْفَقِيهِ فِي زَمَانِنَا هَذَا، نَكُونُ قَدْ أَحْسَنَّا الْوَلَاءَ الَّذِي تَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْبَرَكَاتُ وَالْآثَارُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

* مَنْ هُوَ الْقَائِدُ وَالْوَلِيُّ الْفَعْلِيُّ؟

إِنَّ الْقَائِدَ وَالْوَلِيَّ هُوَ الْقَائِدُ الْفَعْلِيُّ وَالْحَيُّ الَّذِي يُصَدِّرُ الْأَوَامِرَ وَيَحْدُدُ الْمَصْلَحَةَ الْعَلِيَا. وَلِذَلِكَ يَلْزِمُ الْإِنْتِبَاهَ إِلَىٰ أَنْ وِلَايَتِنَا لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيهَا شَقٌّ عَمَلِيٌّ يَنْبَغُ عَنْ حُسْنِ إِدَارَتِهِمْ وَتَشْخِيصِهِمْ لِلْمَصَالِحِ الْعَلِيَا لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا الشَّقُّ الْعَمَلِيُّ يَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ دَوْرَ الْوَلِيِّ الْفَقِيهِ الْحَيِّ الْمَوْجُودِ الَّذِي يَمَارِسُ صِلَاحِيَّاتِهِ وَيَحْدُدُ الْأَوْلِيَّاتِ، وَهَذَا النَّقْطَةُ الْمَحْوَرِيَّةُ الَّتِي تَعْبُرُ عَنْ حُسْنِ الْوَلَايَةِ فِي أَدَاءِ التَّكْلِيفِ.

* سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ: لَوْ خَضَتْ الْبَحْرُ لَخَضَانَهُ مَعَكَ

ثمّة نماذج كثيرة أخرى في التاريخ تقدّم أروع درس في الالتزام بالتكليف مهما كانت المشقّات، فهذا هو سعد بن معاذ وقد قال جواباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي استشار الأنصار في الخروج إلى المشركين في معركة بدر: "لقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك موثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً...". فسُرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: "سيروا وأبشروا، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين"(4).

* رشيد الهجري: ولاية حدّ الشهادة

في زمن أمير المؤمنين عليه السلام تجد نماذج آثرت المشقّة والسجن والقتل على أن تبقى ضمن التكليف الذي رسمه لها الإمام عليه السلام. فقد حدّثَ عليه السلام يوماً رشيداً الهجري بكيفية قتله على يد جلاوزة السلطة الأمويّة الغاصبة: "كيف صبرك إذا أرسل إليك دعيّ بنى أميّة، فقطع يديك ورجليك ولسانك؟ قال: أيكون آخر ذلك إلى الجنّة؟ قال عليه السلام: نعم يا رشيد، وأنت معي في الدّنيا والآخرة"(5).

وكذلك الأمر في زمن الإمام الحسين عليه السلام، إذ كان أصحابه عليه السلام مدرسة رائدة في الوفاء والالتزام بالتكليف حتّى قتلوا وقطّعوا (رضوان الله عليهم).

(1) الشيخ الطوسي، رجال الكشي، ج 2، ص 518.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 519.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 518.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 448.

(5) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 165.